معالم التفسير بالمأثور عند الجاحظ

محمد عثمان عبد الله

mohammed.osman2201@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

جامعة بغداد– كلية التربية (ابن الرشيد)– قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية

أ.د نضال حنش شبار الساعدي

nidal.shabar@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

جامعة بغداد– كلية التربية (ابن الرشيد)– قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية

الملخّص:

تسعى الدراسة الحالية إلى إلقاء الضوء على معالم التفسير بالمأثور عند الجاحظ، وما هي أبرز الأمور التي ركّز عليها في هذا النوع من التفسير، وجمع آراء الجاحظ التفسيرية لبعض آيات القرآن الكريم التي استشهد بها في كتبه ورسائله في دراسة مستقلة، وكشف لأحد الجوانب التي ميزت تفسيره وهو التفسير بالمأثور، مع اتباع المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: التفسير، المأثور، الجاحظ، القرآن، السنة.

Features of interpretation based on the hadith according to Al-Jahiz

Muhammad Othman

mohammed.osman2201@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

University of Baghdad

Asst. Prof. Dr. Nidal Hanash Shabar Al-Saadi

nidal.shabar@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

Abstract :

The current study seeks to shed light on the features of interpretation based on the hadiths according to Al-Jahiz, and what are the most prominent matters that he focused on in this type of interpretation, and to collect Al-Jahiz's interpretive opinions of some of the verses of the Holy Qur'an that he cited in his books and letters in an independent study, and to reveal one of the aspects that distinguished Its interpretation is the interpretation based on the hadiths, following the descriptive and analytical approach.

Keywords: interpretation, hadiths, Al-Jahiz, the Qur'an, the Sunnah

المُقدّمة:

يتميّزُ الجاحظ بأنّهُ لغويٌّ وعالمٌ وبلاغيٌّ وناقدٌ، ومفسّرٌ لآيات القرآن الكريم، لكنه لم يضع تفسيراً خاصّاً به للقرآن الكريم كاملاً ؛ وإنما فسّر آياتٍ من السور القرآنيّة وأودَعها في طيّات كتبه ورسائله، وذلك انطلاقاً من الموضوع الذي يناقشه، والقضية التي يتطرّق لها في كتابه، إذ يستدعي هذا الموضوع ذكر الآية، وقد يفسرها، وقد يأتي بها لمجرد الاستشهاد والاستدلال، ومنها ما فسره، وذلك ليحدث ربطاً بين معنى الآية، والموضوع الذي يتناوله في دراسته، وهو ينحو منحى علمياً في تفسيره، وينبذ الخرافات والخرافات وأباطيل اليهود وغيرهم، ولا يأخذ منها إلا ما وافق العقل، وطابق المنطق، ومن هنا جاء عنوان هذه الرسالة " معالم التفسير بالمأثور عند الجاحظ" ليبين جانباً من جوانب التفسير عنده، وهو التفسير بالمأثور.

أهميّة البحث:

تأتي أهمية الدراسة من حيث بيان جانب مهم من جوانب الجاحظ التفسيرية في دراسة مستقلة، وإظهار اعتماده التفسير بالمأثور، لكشف مدى التأثير والتأثّر بين تلك الآراء.

مشكلة البحث:

الوقوف على تفسير الجاحظ الآيات القرآنية، ومحاولة التنقيب عن مدى تأثر الجاحظ باتجاه التفسير المأثور.

أهداف الدراسة

1- جمعُ آراء الجاحظ التفسيرية لبعض آيات القرآن الكريم التي استشهد بها في كتبه ورسائله في دراسةٍ مستقلة، وكشفٌ لأحد الجوانب التي ميّزت تفسيره وهو التفسير بالمأثور.

الدراسات السابقة:

_ **أقوال الجاحظ في تفسير وعلوم القرآن:** عبد الله بن صالح الخضيري، مجلة جامعة الحديدة، كلية الحديدة، العدد/16/ديسمبر، 2019 : أوضح فيه الباحث أنّ الجاحظ ممن تحدث بالتفسير الموضوعي، إذ يقوم بحشد الآيات التي تدعم كلامه، وتؤيد آراءه التفسيرية، والفقهية واللغوية، كما بيّن اعتماد الجاحظ على الحديث الشريف وأقوال الصحابة والتابعين في تفسير الآيات القرآنية التي أتى على ذكرها في سياق الموضوع الذي يتحدث عنه.

_ **الجاحظ في قراءات الدارسين المحدثين:** محمد عبد البشير مسالتي، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، تخصص: أدب عربي قديم، كلية الآداب، جامعة سطيف، الجزائر، 2013- 2014: تناول فيها الباحث القراءة بين التمثّل الاستدراجي والوعي الاستنطاقي، وذلك في حقول: الشعرية ونظرية التلقي والتفكيك، والخطاب البلاغي بين البعد الإقناعي والإبلاغي، وانطلق من خلال ذلك إلى دراسة نثر الجاحظ ومعايير التلقي الحداثي، والوصول إلى نتيجة تأكيد الأدبية في نثره، والتزامه الواقعية في بلاغته التي قامت على الحجاج والتصوير وقدرته على الإقناع والتأثير.

منهج الدراسة

_ المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على تحليل آراء الجاحظ ، ونقدها ، ومقارنتها مع آراء معاصريه من المفسرين

المبحث الأول: التعريف بالتفسير بالمأثور، وبالجاحظ:

أولاً: التفسير بالمأثور:

يعد التفسير بالمأثور من أهم أنواع التفسير، و" يشمل ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) وما نُقل عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما نُقل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم" (الذهبي، ٢٠٠٥، ١/ ١١٢) (Al- Zahabi, 2005, 1/ 112) وعرّفه مناع القطان بأنه التفسير" الذي يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب المعروفة في شروط المفسر، من تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة، لأنها جاءت مبيّنة لكتاب الله، أو بما يروى عن الصحابة، لأنهم أعلم الناس بكتاب الله، أو بما قاله كبار التابعين ؛ لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة" (القطان، 1996: 347) (Al- Qatan, 1996, 347)

ويعد تفسير القرآن بالقرآن أصح طرق التفسير وأجلّها وأشرفها وأحسنها، و" إنّ العلماء أجمعوا على أنّ أشرف أنواع التفسير وأجلّها قدراً تفسير القرآن بالقرآن". (الشنقيطي، ١٩٩٥، ١/ ٥) (Al-shanqute, 1995, 1/5)

وهذا النوع من التفسير قسمان:

_توقيفي: لا اجتهاد فيه، ولا إعمال فكرٍ أو عقل، وهو " أن يكون في الكلام لبسٌ وخفاء، فيأتي بما يزيله ويفسره".(السيوطي، ١٩٩٨، ١/ ٢٧٣) (1998: 1/ 273 Al-seoti)

_اجتهادي: يستند إلى قوة النظر عند المفسر، وصحة الاستنباط لديه، وذلك من خلال قدرته على حمل معنى آية على آية أخرى تبيِّنها وتشرحها، وإن صحة النظر وقوة الاستنباط والتجرد عن الهوى يرجح القول الموافق له على ما خالفه من الأقوال (القطان، ١٤٢٥ هـ، ١/ ٣٢٠) (Al-Qatan-1425,1/320)

كما تعدّ السنة النبوية المصدر لثاني للتشريع الإسلامي، والرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) هو المفسر والموضح لكل ما جاء في القرآن الكريم، والتفسير النبوي أن ينص النبي صراحة على تفسير آية من القرآن، فهو " ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) واتضح معنى الآية فيه وبانَ، فيجزم بذلك، والتفسير بهذا المعنى هو وضوح معنى الآية وظهورها، وعدم احتمالها لشيءٍ آخر" (ابن عقيلة، ٢٠١٠، ٧/ ٣٩٥) (ibn oqlia,2010, 7/395)

ومن ثم فإن الرجوع إلى السنة النبوية في تفسير القرآن أمر بديهي وطبيعي، فالقرآن نزل على محمد (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) وقد قال تعالى: ﴿ **وأنزلْنا إليكَ الذّكرَ لتبيّنَ للناسِ ما نزلَ إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ (النحل: 44)، وبذلك فإن تفسير الرسول لكلام الله تعالى حجة على كل قول، لأنه لا يخضع للاجتهاد، أو للتفسير بالرأي، بل هو وحيٌ يُوحى.

ولآراء آل البيت عليهم السلام أهميتها في تفسير القرآن الكرين ، إذ يستدلُّ كثير من المفسرين بها وبما نُقل عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم.

والأئمة عليهم السلام قائمون مقام النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) في تفسير القرآن، والخبر الذي صحَّ عن النبي وعنهم لا يجوز إلا بالأثر الصحيح، والنص الصريح، (الطبرسي، 1/ 39) (Al-tbrsei, 1/39) وهم من الراسخون في العلم، لذلك فإن أقوالهم تمتاز بالصدق، لأنهم رواة صدق وثقة.

ثانياً: التعريف بالجاحظ:

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الفقيمي (السمعاني، ، 1408 هجرية: 3/ 162) (Al-samani,1408, 3/162 لُقِّب ب(الجاحظ) بسبب جحوظ عينيه، أي نتوئهما (العسقلاني، 1989: 1/ 159) (Al-askalani,1989, 1/159)ولم يكن يعجبه هذا اللقب، وكان يتبرم ويضجر ممن يدعوه به، وبذل جهده من أجل أن يناديه الناس باسمه(عمرو) فهو اسمه، وهو أرشق الأسماء وأخفّها وأظرفها وأسهلها مخرجاً)(الحموي، ١٩٩٣، ٧٤) ((al-hamoi, 1993, 74

وُلد الجاحظ في بداية القرن الثاني الهجري، روي عنه أنه قال: "أنا أسَنُّ من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة 105 ه، وولد أبو نواس في آخرها" ، فإنْ صحّت هذه الرواية فهذا يعني أنه ولد سنة 105 ه، أي في العقد السادس من بداية القرن الثاني الهجري، وقد كانت ولادته في زمن الخليفة المهدي (الحموي، ١٩٩٣، ٧٤) وتوفي الجاحظ في أحد أيام شهر محرم سنة 255 ه، وقيل قتلته كتبه . (ابن خلكان، ١٩٧٢، ٤٧٤) (ibn-kalkan, 1972, 475)

اشتهر الجاحظ بولعه في القراءة ونهمهِ لطلب العلم والمعارف المتنوعة، إذ تعلّق بالعلم، ونهله من منابعه الرئيسة، وك يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر وكان حصيلة ذلك كله أنه ألف ما يقارب 360 مؤلفاً في موضوعات متنوعة. (الزركلي، ١٩٨٦، ٥/ ٧٤) ((Al-zarkali, 1986, 5/74

المبحث الثاني: نماذج التفسير بالمأثور عند الجاحظ:

اعتمد الجاحظ في منهجه على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأقوال آل البيت عليهم السلام، و الصحابة والتابعين من بعدهم في التفسير، وكان اعتماده على العقل أيضاً إلا إنه لا يرفض الأحاديث التي ذهب إلى رفضها بعض المعتزلة وكان يرضى بتفسير الأئمة الأعلام أمثال عكرمة والكلب والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الأصم كما نقل ذلك عن شيخهم النظام وأنه كان لا يرضى أن تحمل الآية على الغريب مما لا يتوافق عليه كثيرا من أهل التفسير والأعلام. (شاكر، ١٦٠) (Shaker, 160)

فيما يأتي تفسير الآيات التي فسّرها الجاحظ بالاعتماد على المأثور في بعض المسائل:

1_البنوة والوالدية ووحدانية الله

_ قال تعالى:﴿ **لم يلدْ ولمْ يولدْ** ﴾(الإخلاص: 3)

– قال تعالى:﴿**وقالَتِ اليهودُ عزيزٌ ابنُ اللهِ وقالَتِ النّصارى المسيحُ ابنُ اللهِ ذلك قولُهُمْ بأفواهِهِمْ يضاهئونَ قولَ الذينَ كفرُوا منْ قبل قاتلَهمُ اللهُ أنّى يؤفكون**﴾(التوبة: 30)

تتعلق الآيتان السابقتان بمسألة البنوة والوالدية ونسبتها إلى الله عز وجل كما اعتقد بها النصارى واليهود، والله واحد لا إله إلا هو خالق الكون وما فيه من المخلوقات والظواهر، وهو مصدر الديانات والشرائع التي حمَّلها لرسله لتبليغها للناس، ومع ذلك يوجد اختلاف في المفاهيم وتنوّع في العقائد بين الناس على اختلاف دياناتهم، وهذه مسائل شائكة يدخل في تركيب نسيجها معتقدات وأفكار تم توليدها من تمازج الفكر مع العقيدة من جهة، وما خلفه الموروث الجمعي– الثقافي للأمم من جهة أخرى.

فالمسيحيون يؤمنون بأن المسيح ابن الله، وهم "يعتقدون بوجود ولادتين: ولادة أزلية، ويُقصد بها ولادة الابن الإله من الآب، وولادة زمنية، ويُقصد بها ولادة الابن الإنسان من أمه مريم، وهنا يقول يحيى بن عدي(ت 974 م) بأن المسيح هو إله من قِبل أنه ابن أزلي، ومألوه من قِبل أنه إنسان زمني".(عباس، ٢٠١٤، ص ١٨١) (Abas,2014, 181)

والجاحظ في رده على هذا الزعم نفى نفياً قاطعاً مسألة البنوة والوالدية عنه جلّ جلاله، إذ يقول:" ومعروفٌ أنّ القرآن الكريم ينفي (الوالدية والولدية) عن الله عزّ وجلّ، على الحقيقة والمجاز كليهما، إذْ قال تعالى:﴿ **لمْ يلدْ ولمْ يولدْ** ﴾(الإخلاص: 3)، وقال عزّ وجل:﴿ **ما كانَ للهِ أن يتَّخذَ منْ ولَدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنَّما يقولُ لهُ كنْ فيكونْ** ﴾(مريم: 35)، وقال أيضاً:﴿ **وقالُوا اتَّخذَ الرَّحمنُ وَلَداً* لقدْ جئتُمْ شيئاً إدّاً * تكادُ السّمواتُ ينفطرْنَ منهُ وتنشقُّ الأرضُ وتَخرُّ الجبالُ هَدّاً * أن دَعَوا للرحمنِ أن يتَّخذَ ولَداً**﴾(مريم: 88-92).

وفي تفسيره للآية: ﴿ قالَت اليهودُ عزيزٌ ابنُ اللهِ وقالت النّصارى المسيحُ ابنُ اللهِ ذلكَ قولُهُمْ بأفواههمْ يضاهئون قولَ الذينَ كفرُوا منْ قبلُ قاتلَهمُ اللهُ أنّى يؤفكون﴾(التوبة: 30) (الجاحظ، ١٩٩١، ٣٠) (al-jahez,1991,30)

قال الجاحظ:" وهنا ينظر الجاحظ بكل عناية وتأنٍّ ليردّ على من يجيز ذلك من المتكلمين المسلمين، ويقول: "وسألتُم عن قولهم: إذا كان الله تعالى قد اتخذ عبداً من عباده خليلاً، فهل يجوز أن يتخذ عبداً من عباده ولداً، يريد بذلك إظهار رحمته ومحبته إياه، وحسن تربيته وتأديبه له، ولطف منزلته منه، كما سمى عبداً من عباده خليلاً، وهو يريد تشريفه وتعظيمه، والدلالة على خالص حاله عنده؟؟" (الجاحظ، ١٩٩١، ٣٠) (al-jahez,1991,30)

ومن ثم فالولدية والخلّة المقصودتين هما من باب إظهار الرحمة والمحبة والتشريف فقط، وليس من باب إثباتهما على الله جل تعالى عن ذلك.

ويتابع مؤكداً: "وأما نحن– رحمك الله – فإنّا لا نجيز أن يكون لله ولد، لا من جهة الولادة، ولا من جهة التبني، ونرى أن تجويز ذلك جهل عظيم، وإثمٌ كبير، لأنه لو جاز أن يكون جداً وأباً، وكان ذلك لا يوجب نسباً، ولا يوهم مشاكلة في بعض الوجوه، ولا ينتقص من عظم – من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد– أخاً، ولجاز أن يجد له صاحباً وصديقاً، وهذا ما لا يجوّزه منْ لا يعرف عظمة الله، وصِغر قدر الإنسان، ..ولم يحمد الله من جوّز عليه صفات البشر، ومناسبة الخلق، ومقاربة العباد" (الجاحظ، ١٩٩١، ٣٠) (al-jahez,1991,30)

ويستند إلى ما جاء في الذكر الحكيم حول تقرير وحدانية الله يدعم ذلك بقوله: "إنّ الله جلّ وعزَّ في كتابه على لسان نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم):﴿ **وإذْ قالَ اللهُ يا عيسى ابنَ مريمَ أأنتَ قلْتَ للناسِ اتخذوني وأمي إلهين منْ دونِ اللهِ** ﴾(المائدة: 116)، وأنهم زعموا أنهم لم يدينوا قط بأن مريم إله في سرهم، ولا ادّعوا ذلك قط في علانيتهم " (الجاحظ، ١٩٩١، ٣٥) (al-jahez,1991,35)

فالجاحظ ذو نزعةٍ عقليةٍ، وقد حاجج النصارى في رده عليهم اعتماداً على الأحداث الوقائع التي لا ينكرها عقل، ولا ينفي وجودها أحد، أي أنه يردُّ عليهم بما ورد عنهم كما ذُكر عنهم في القرآن الكريم مما هو ذو علاقة وثيقة بمسألة البنوة والوالدية التي يقول بها كلٌّ من النصارى واليهود .

وحين طلبت قريش من النبي وصف الله ليعبدوه، أنزل الله تبارك وتعالى "قلْ هو اللهُ أحدٌ" ويعني" غير مُبعّض، ولا مُجزّى، ولا مُكيّف، ولا يقع عليه اسم العدد، ولا الزيادة، ولا النقصان، الله الصمد الذي قد انتهى إليه السؤدد، والذي يصمد أهل السماوات والأرض بحوائجهم إليه، لم يلد منه عزيزاً، كما قالت اليهود، عليهم لعائن الله، وسخطه، ولا المسيح، كما قالت النصارى، عليهم سخط الله، ولا الشمس، ولا القمر، ولا النجوم كما قالت المجوس عليهم لعائن الله وسخطه، ولا الملائكة كما قالت قريش لعنهم الله، ولم يولد، لم يسكن الأصلاب، ولم تضمه الأرحام، لا من شيء كان، ولا من شيء خلق ما كان، ولم يكن له كفو أحد، يقول ليس له شبيه، ولا مثل، ولا عدل، ولا يكافيه أحد من خلقه بما أنعم عليه من فضله"

فالآية (لم يلد ولم يولد) وفق التفاسير السابقة كلها تقرر وحدانية الله بشكل لا يقبل الشك من أي وجه من الوجوه، وتنفي عنه جل جلاله البنوة والوالدية.

ونلحظ أن الجاحظ قد فسّر القرآن بالقرآن، معتمداً على الآيات التي اعتمد عليها في تفسير (لم يلد ولم يولد) مؤكداً وحدانيته تعالى، وتنزيهه عن مسألة البنوة والوالدية، لكننا نجد أن القمي قد أفاض في تفسيره ليؤكد تفرد الله تعالى وتعاليه عن كل مظهر من مظاهر الشبه بأحد، أو الشراكة أو الإعانة مع أحد، فهو واحد لا أحد يعينه، ولا يستند إلا إلى قدرته وعظمته، لكن الطبري ربط هذه المسألة بقضية الحياة والموت، فمن سيولد سيموت، وسيورث، وهذا لا ينطبق على الذات الإلهية المتعالية عن ذلك، فالله سابق على كل موجود ومولود، وهو دائم إلى الأبد، وهذا مما لا ينطبق على من يكون موجوداً بالولادة والموت.

ويمكن القول بأن الجاحظ فصل القول في تفسير الآية(لم يلد ولم يولد) واستدل على بطلان اعتقاد النصارى واليهود بمسألة البنوة والوالدية بالقرآن نفسه، وقال بأن الاعتقاد بذلك إثم عظيم.

2- تأييد الأنبياء عليهم السلام وإثبات النبوة

_ قال تعالى:﴿ **لا تكونُوا كالذينَ آذَوا موسى فبرَّأه اللهُ** ﴾(الزمر: 69)

فسّر الجاحظ هذه الآية بما ورد عن النبي الكريم، وذكر سند رواية نقل الحديث:" يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، عن علي بن يزيد ، عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) هذه الآية (لا تكونوا كالذين آذوا..) فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم): "إن موسى كان إذا دخل الماء ليغتسل، دخل وعليه إزاره، فإذا بلغ الماء منه عورته، خلع الإزار، فوضعه على صخرة، قال: فقالت بنو إسرائيل: أن موسى إنما يفعل هذا، لأنه آدر، فلما كان ذات يوم، جاء ليغتسل، فتناول الإزار، فوثبت الصخرة تسعى، وموسى يقول: إزاري صخرة ، إزاري صخرة ! وهو يضربها بعصاه، فلما ضرب، أثّر ذلك فيها، حتى مرَّ على الملأ من بني إسرائيل، فعلموا أنه ليس بآدر"

فالجاحظ فسّر الآية الكريمة الآنفة بالحديث النبوي الشريف، ولم يزد عليه شيئاً، وإنما استشهد به لأجل التفسير.

أما الطبري فقد قال بأن الخطاب في الآية موجه لأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وورد عنه:" القول في تأويل قوله تعالى "يأيها الذينَ آمنوا لا تكونوا.." يقول تعالى ذكره لأصحاب نبي الله (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم): يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تؤذوا رسول الله بقول يكرهه منكم، ولا بفعل لا يحبّه منكم، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبي الله، فرموه بعيب كذباً وباطلاً، فبرَّأه الله مما قالوا فيه من الكذب والزور بما أظهر من البرهان على كذبهم، (وكان موسى عند الله وجيهاً) يقول: وكان موسى عند الله مشفعاً فيما يسأل، وذا وجه ومنزلة عنده بطاعته إياه، ثم اختلف أهل التأويل في الأذى الذي أُذي به موسى الذي ذكره الله في هذا الموضع، فقال بعضهم بأنه آدر، وروي بذلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) خبراً " (الطبري، ٤٢٧) (Al- tabari, 427) ذكر الطبري طائفة من الروايات تفسر الآية، من خلال سبب نزولها، نحو الخبر الذي أورده مسنداً عن ابن عباس، وعن يونس عن ابن وهب، وعن ابن حميد عن ثنا يعقوب عن جعفر عن سعيد بأن موسى عليه السلام أبرص، وعن بحر بن حبيب بن عربي عن ثنا روح بن عبادة، وغيرهم الطبري، ٤٢٧) (Al- tabari, 427) ، أي أن الطبري فسّر الآية عن طريق حديث النبي الكريم من دون أن يذكر هذا الحديث.

3_ بعض الأوامر والنواهي

إنّ مما يتعلق بالأوامر والنواهي(تقوى الله) والأخلاق، فإن الجاحظ تناول هذه المسألة بكثير من الرعاية والاهتمام اللذين تميزا بالنظرة العقلية التي توضح سبب النهي ودواعيه وضروراته، وتبين وجوب تنفيذ الأمر ومنافعه وانعكاساته الإيجابية على الإنسان الفرد، وعلى باقي الأفراد الذين هم كيان المجتمع.

ومن الأوامر والنواهي ما يتعلق بالأعمال أو التشريعات أو الأخلاق العامة، أو السلوكيات الخاصة بالإنسان، وربما كانت ذات علاقة بالآداب العامة والمبادئ الإنسانية، وفيما يلي الآيات التي تطرق إليها الجاحظ في ثنايا كتبه وقد تناولت تلك القضايا:

أ_ قال تعالى:﴿ **اجتنبوا كثيراً منَ الظّنّ أن بعضَ الظّنّ إثمٌ** ﴾(الحجرات: 12).

فسّر الجاحظ هذه الآية من وجهة نظر بلاغية، وأخرى بالمأثور، فقد فسّرها انطلاقاً من كلمة(بعض) فقال:" هذا البعض هو ذلك الكثير الذي ذكره، لأن قليل الكثير ربما كان كثيراً "، (الجاحظ، ١٩٦٥، ٤/ ٣٣) (al- jahez, 1965, 4/34 وانطلق من هذه المفردة لتفسير الآية، فكان تفسيره مستنداً إلى تفسير الجزء وصولاً إلى الكل، أي أنه بيّن ضرورة اجتناب سوء الظن ولو كان بعضاً أي على نحو قليل أو كثير، ذلك أن " بعض الشيء: طائفة منه " ثم فصل بين نوعين للظن سنعرض لهما لاحقاً.

ويقول الطبري: "يقول تعالى ذكره:" يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، لا تقربوا كثيراً من الظن بالمؤمنين، وذلك أن تظنوا بهم سوءاً، فإن الظانَّ غير محقٍّ، وقال جلّ ثناؤه(اجتنبوا كثيراً من الظن) ولم يقل(الظن كله، إذ كان قد أذن للمؤمنين أن يظن بعضهم ببعض الخير، فقال: لولا إذ سمعتموه ظنَّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وقالوا هذا إفكٌ مبينٌ، فإذن الله جلّ ثناؤه للمؤمنين أن يظن بعضهم ببعض الخير، وأن يقولوه،

وإن لم يكونوا من قيله فيهم على يقين" (الطبري، ٥١٧) (Al- tabari, 517) ثم أورد الطبري تفسير بعض الصحابة، فقال: "حدثني علي، قال: ثني أبو صالح، قال: ثني معاوية عن علي، عن ابن عباس قوله(يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن)، يقول: نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن شراً، وقوله(إنّ بعض الظن إثم) يقول: أن ظنَّ المؤمن بالمؤمن الشرَّ لا الخير إثم، لأن الله قد نهاه عنه، ففعل ما نهى الله عنه إثم، وقوله(لا تجسسوا) يقول: ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه، فحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره" الطبري، ٥١٧) (Al- tabari, 517) وأتبع ذلك بآراء أخرى مشابهة ليعزز تفسيره.

والقمي لم يورد تفسيراً لهذه الآية في معرض تفسيره لسورة الحجرات.

ومن ثم فإن قال الجاحظ متفقان في توضيح الفكرة الجوهرية في الآية وهي ضرورة اجتناب سوء الظن بالناس، للكن الجاحظ فرق بين نوعين من الظن، منها ما هو محمود ومنها ما هو مذموم، وسنأتي على ذلك لاحقاً، في حين أن الطبري أكد على نوع واحد جرياً على ما ذكرته الآية الكريمة، وهو الظن السيء وضرورة اجتنابه لما ينتج عنه من شر أو أذى يلحق بالناس الجاحظ ١٩٦٥، ٤/ ٣٣) (al-jahez, 1965, 4/34)

وبذلك فإن تفسير الطبري جاء لتوضيح مقصد الآية الأخلاقي والتربوي، في حين أن تفسير الجاحظ أضاف عليه التفسير اللغوي انطلاقاً من اجتهاده الشخصي في تفسير هذه الآية.

ب_ قال الله عز وجل:﴿ **والطيّباتِ للطيّبينَ والطيّبونَ للطيّباتِ** ﴾(النور: 26)

قال الجاحظ: "دليل التأويل في امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام، على غير ما ذهب إليه كثير من أصحاب التفسير، وذلك أنهم سمعُوا قوله عزّ وجلّ:﴿ **ضربَ اللهُ مثلاً للذينَ كفرُوا امرأتُ نوحٍ وامرأتُ لوط كانَتَا تحتَ عبدينِ منْ عبادِنا صالحينَ فخانتاهما فلم يُغنيا عنهما منَ اللهِ شيئاً وقيلَ ادخلَا النارَ معَ الدَّاخلينَ** ﴾(التحريم: 10)، فدلَّ ذلك على أنه لم يعنِ الخيانة في الفرج (الجاحظ، ١٩٦٥، ٤/ ٣٣) (al-jahez, 1965, 4/34) لقد فسّر الجاحظ معنى (الطيب) في الإنسان (الرجل والمرأة) هو مخصوص بأشخاص بعينهم في الآية الكريمة، واستشهد على ذلك بآية أخرى تعزز تفسيره الذي ذهب إليه.

ويقول الطبري في تفسير﴿**والطيّباتِ للطيّبينَ والطيّبونَ للطيّباتِ**﴾ أكثر من وجه الطبري، ٥١٧) (Al- tabari, 517) وهي:

- الطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول، نزلت في من قال من البهتان في زوجة النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)، والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول، وهؤلاء الذين قالو في عائشة ما قالوه هم الخبيثون، والطيبون هم المبرؤون مما قاله الخبيثون .
- الطيبات من الأعمال تكون للطيبين .
- القول الطيب يخرج من المؤمن والكافر فهو للمؤمن والكافر فهو للكافر.
- القول الحسن وهو للمؤمنين، والسيء فهو للكافرين.
- الطيبون من الناس للطيبات من القول، لأنهم أهلها وأحقّ بها.

ومن ثم نجد أن تفسيره تراوح بين القول الطيب، والإنسان الطيب ، أي أن الجاحظ كان أكثر تحديداً في تفسيره، أي أنه خصص تفسير الآية بالناس، في حين أن كلاً من الطبري والقمي قد وسعوا من معنى(الطيبون، الطيبات) ليتراوح بين القول والشخص، الناس)، وقد أفاض الطبري في الشرح والتفسير، وذكر أكثر من معنى للآية الكريمة، مما يوسع من دائرة تفسير الآية، ويُخرجها من دائرة التحديد والتخصيص التي وضع الجاحظ إطارها لتفسير الآية، ليجعلها صالحة لكل زمان ومكان.

ومما اعتمد عليه اعتمد فيه على السنة النبوية الشريفة تفسيره لقول الله تعالى:﴿**ولا تمشي في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الجبال لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبالَ طولاً الجبال** ﴾(الإسراء: 37)، إذ أنه يشرح ويوضح حالة التبختر والتغطرس في المشي التي يكون عليها الإنسان بأنها حالة مذمومة، واستشهد في ذلك بحديث النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) قوله "بينما رجل يتبختر يمشي في برديه قد أعجبته نفسه، فخسف الله به، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيام" (ابن حميد، ٢٠٠٢، ٣/ ١٩٥) (Ibn- hamed, 2002, 3 /195) وبيّن الجاحظ في حديث آخر أن هذه المشية يبغضها الله تعالى إلا في مكان القتال وأرض المعركة فقال: "قد خبرنا قبل هذا عن قول النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) لأبي دجانة حين رآه يتبختر بين الصفين: (الجاحظ، ١٩٩٠، ص ٣٨٦) إن هذه مشيه يبغضها الله إلا في هذا المكان" (ابن إسحاق، ٣٢٦)

والجاحظ يعتمد الأحاديث الصحيحة في بيان الآيات التي يتناولها ويقوم بتفسيرها، فهو يؤيد هذه الأحاديث فضلاً عن أنه يسند الحديث أو ينقل عن التابعين والصحابة الكرام؛ ومن ذلك ما جاء في الحديث الذي نقله عن قتادة عن أنس عن النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) فقال:" قال: وحدثنا زيد بن الحباب قال: حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أنس، قال: لما صنع رسول الله (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) بأصحاب اللقاح ما صنع نزلت:﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً** ﴾(المائدة: 33 (الجاحظ، ١٩٩٠، ص ٣٨٦) ونرى بذلك أنه كان يعتني بإيراد السند عن النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم).

يتبين لنا أن الجاحظ يستعين في تدعيم آرائه بالقرآن والحديث النبوي الشريف وأقوال الصحابة. والتابعين وكذلك قد يستخدم الأمثال والحكم والشعر العربي.

ومما نقله عن الصحابة ما جاء في قوله تعالى:﴿**الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم** ﴾(النجم: 32)، فقد بيّن أن الأمم كما نقل له عن الصحابة فذكر من ذكر ذلك وأبهم القول في قول غيره، ولم يصرح به فقال: قال عبد الله بن مسعود وسئل عن تأويل هذه الآية، فقال إذا دنا الرجل من المرأة، فإن تقدم ففاحشة، وإن تأخر فلمم، وقال غيره من الصحابة: القبلة واللمس، وقال آخرون: الإتيان فيما دون الفرج (الجاحظ، ١٩٩٠، ص ٣٨٦)

الخاتمة:

ظهر التفسير لدى الجاحظ في تناوله عدداً من المسائل التي تتضمنها الآيات التي استدل بها وفسر منها بالقرآن، وبالحديث الشريف ، وبأقوال آل البيت عليهم السلام ، وظهر عمق تفكيره ، ودقة وجهة نظره في تفسيره بالمأثور ، إذ دعم تفسيره بما لا يقبل الشك أو المحاججة، مما منح تفسيره قوةً ، وتأكيداً لمعاني تلك الآيات.

المصادر والمراجع:

1. الجاحظ، المختار في الردّ على النصارى، تحقيق ودراسة: محمد عبدالله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت، مكتبة الزهراء، جامعة القاهرة، ط1، 1991.
2. 41- الجاحظ عمرو بن بحر الجاحظ، ، البخلاء، ضبط نصوصه وعلق عليها: محمد علي أبو العباس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012.
3. الجاحظ، عمرو بن بحر، البرصان والعرجان والعميان والحولان، تح: محمد عبد السلام هـــارون، دار الجبل، بيروت، ط1، 1990م.
4. الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تح: محمد عبد السلام هارون، مصر، ط2، 1965م
5. الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عبـــاس، دار الغـــرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1993.
6. ابن حجر شهاب الدين العسقلاني، أـــبو الفضل أحمد بن علي، الشافعي (٨٥٢ هـــ)، تهذيب التهـــذيب، باعتناء: إبراهيم الزيبق، عادل مرشد، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥ هـــ - ٢٠١٤ م.
7. ابن حميد الأزدي الميورقي، محمد بن فتوح بن عبدالله، الحميدي (ت 488 ه)، الجمع بين الصـــحيحين البخاري و مسلم: تحقيق: علي حسين البواب، دار ابن حزم، بيروت، 2002.
8. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عبـــاس، دار صادر، بيروت، 1972.
9. الذهبي، محمد حسين، **التفسير والمفسرون**، دار الحديث، القاهرة، 2005.
10. الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1968:
11. السمعاني، أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور، الأنساب، دار الفكر، بيروت، 1408 هجرية.
12. السيوطي، جلال الدين، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998.
13. شاكر، أبو الفتوح عبد القادر، الإمام الجاحظ ودوره في التفسير، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، العراق، الأنبار، المجلد /11/العدد/43/.
14. الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، 1995.
15. العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، الأنساب، تحقيق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1989.
16. عباس، نادين، نظرية التوحيد والتّثليث الفلسفية عند يحيى بن عدي، مجموعة البحوث العربية المسيحية، جامعة القديس يوسف، مركز الشرق المسيحي للبحوث والمنشورات، بيروت، 2014.
17. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية،
18. القطان، منّاع، **مباحث في علوم القرآن**، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1996 .
19. القطان، مناع، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، جامعة أم القرى، 1425 ه.
20. ابن عقيلة المكي، محمد بن أحمد بن سعيد، **الزيادة والإحسان في علوم القرآن**، دار البشائر، بيروت، 2010.

21.ابن محمد الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ت ٥٩٧هـ)، صفة الصفوة، المؤلف: المحقق: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م: 3
22.الميداني، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، دار صادر، بيروت، 2012.

sources and references :

1. Al-Jahiz, Al-Mukhtar in the Response to the Christians, edited and studied by: Muhammad Abdullah Al-Sharqawi, Dar Al-Jeel, Beirut, Al-Zahra Library, Cairo University, 1st edition, 1991.
2. 41- Al-Jahiz Amr bin Bahr Al-Jahiz, Al-Bakhla'a, whose texts were edited and commented on by: Muhammad Ali Abu Al-Abbas, Egyptian General Book Authority, 2012.
3. Al-Jahiz, Amr bin Bahr, Al-Barsan, the Lame, the Blind, and the Squint, edited by: Muhammad Abd al-Salam Haroun, Dar al-Jabal, Beirut, 1st edition, 1990 AD.
4. Al-Jahiz, Amr bin Bahr, Al-Hay'ah, ed.: Muhammad Abd al-Salam Haroun, Egypt, 2nd edition, 1965 AD.
.Al-Hamawi, Shihab al-Din Abu Abdullah Yaqut bin Abdullah, Dictionary of Writers, edited by: Ihsan Abbas, Dar al-Gharb al-Islami, Beirut, 1st edition, 1993.
6. Ibn Hajar Shihab al-Din al-Asqalani, Abu al-Fadl Ahmad bin Ali, al-Shafi'I (852 AH), Tahdheeb al-Tahdheeb, curated by: Ibrahim al-Zaybak, Adel Murshid, publisher: Al-Resala Foundation, Beirut, first edition, 1435 AH – 2014 AD.
.7Ibn Hamid al-Azdi al-Maywarqi, Muhammad bin Futuh bin Abdullah, al-Humaydi (d. 488 AH), Combining the Sahihs of Bukhari and Muslim: Edited by: Ali Hussein al-Bawab, Dar Ibn Hazm, Beirut, 2002.
8. Ibn Khalkan, Ahmed bin Muhammad bin Ibrahim, Deaths of Notables and News of the Sons of the Time, edited by: Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, 1972.
9. Al-Dhahabi, Muhammad Hussein, Al-Tafsir and Commentators, Dar Al-Hadith, Cairo, 2005.
10. Al-Zirakli, Khair al-Din, Al-A'lam, Dar Al-Ilm Lil-Malayin, Beirut, 1968.
.11Al-Samani, Abu Saad Abdul Karim bin Muhammad bin Mansour, Al-Ansab, Dar Al-Fikr, Beirut, 1408 AH.
12. Al-Suyuti, Jalal al-Din, The Battle of Opportunities in the Miracle of the Qur'an, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon, 1998.
13. Shaker, Abu Al-Futuh Abdul Qadir, Imam Al-Jahiz and his role in interpretation, Al-Anbar University Journal of Islamic Sciences, Iraq, Al-Anbar, Volume /11/Issue/43/.
14. Al-Shanqeeti, Muhammad Al-Amin, Adwaa Al-Bayan fi Clarifying the Qur'an with the Qur'an, Dar Al-Fikr, Beirut, 1995.
.15Al-Asqalani, Abu Al-Fadl Ahmed bin Ali bin Muhammad bin Ahmed bin Hajar, Genealogy, edited by: Abdul Aziz Muhammad bin Saleh Al-Sudairi, Al-Rushd Library, Riyadh, 1st edition, 1989.
16. Abbas, Nadine, the philosophical theory of monotheism and trinity according to Yahya bin Adi, Arab Christian Research Group, Saint Joseph University, East Christian Center for Research and Publications, Beirut, 2014.
17. Al-Qurtubi, Al-Jami' fi Ahkam Al-Qur'an, Dar Al-Kutub Al-Misria,
18. Al-Qattan, Manna, Investigations in the Sciences of the Qur'an, Al-Resala Foundation, Beirut, Lebanon, 3rd edition, 1996.

19. .19Al-Qattan, Manna, Rules of Weighting According to Commentators, Umm Al-Qura University, 1425 AH.
20. Ibn Aqila Al-Makki, Muhammad bin Ahmed bin Saeed, Increase and Ihsan in the Sciences of the Qur'an, Dar Al-Bashaer, Beirut, 2010.
21. Ibn Muhammad al-Jawzi, Jamal al-Din Abu al-Faraj Abd al-Rahman bin Ali, (d. 597 AH), Sifat al-Safwa, author: Editor: Ahmed bin Ali, publisher: Dar al-Hadith, Cairo, Egypt, edition: 1421 AH/2000 AD: 3
22. Al-Maidani, Ahmed bin Muhammad, Majma' al-Athlam, Dar Sader, Beirut, 2012